السياق الثقافي للهبات في خطاب مديح السلطة في القرن التاسع عشر في العراق

أ.م.د. حسن ناظم عبد	وزير الثقافة والسياحة والآثار
م.م. مناف حيدر آلوس	كلية التربية الأساسية/ جامعة الكوفة

munafh.almafrachi@uokufa.edu.iq hassannadhem@hotmail.com

الملخص

تُعدُّ الهبة من أبرزِ الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، التي تؤثر في صوغ الثقافة العربية ولاسيما في جانبها الأدبي، ولا شكَّ في أنَّ لهذا اللون الثقافي، بوصفه نظاماً قيمياً ممتداً، مكوناته الكامنة وتجلياتـه الظاهـرة، وهو ما يسـتوجب الغوص بهـما وتحليلهما معاً، واسـتقصاء أبرز مداخله وأسبابه الذاتية والموضوعية التي أدت إلى شيوعه وتكريسه لوناً ثقافياً وعرفاً اجتماعيّاً سائداً.

وتكمن أهميةُ هذا العمل في دراسة هذه الظاهرةِ الثقافيةِ والقيمةِ الاجتماعية في الأدبِ العربيِّ، في أنَّها قدَّمت وصفاً وتحليلاً وتفسيراً ثقافياً للهبة في العراق في القرن التاسع عشر، وربطتها بأسبابها السياسـية والثقافية والاقتصادية وبظروفها الذاتية والموضوعية بشكلٍ عام، التي وسمت القرن التاسـع عشر بطابع المديح، الأمر الذي أدى إلى أن تكون القصيدة سـلعةً لها قيمةٌ تبادليّة مرتبطة بمقابلها المادي على حساب قيمتها الثقافية غير التخادميّة مع السلطة القائمة.

الكلمات المفتاحية: الهبات، الثقافة العربية، الدراسات الثقافية، قيمة تبادلية

The cultural context of gifts in the discourse of praise for authority in the nineteenth century in Iraq

Abstract

Gifts are considered one of the most prominent social and economic phenomena that impact the Arab culture, especially in its literary aspect.

There is no doubt that this cultural practice, as an extended value system, has its inherent components and apparent manifestations, which necessitates deeper research and analysis, exploring its most important approaches and objective and subjective motivations that led to its popularity and dedication as a cultural inclination and prevailing social norm.

The significance of this work lies in studying this cultural phenomenon and social value in Arab literature, in that it provided a full description, analysis and cultural interpretation of the gift in Iraq in the nineteenth century, and linked it to its political, cultural and economic reasons and to its own subjective and objective conditions in general, Which marked the nineteenth century is characterized by the merit of praise that led to the poem being a commodity with a reciprocal value tied to its material return at the expense of its non-service cultural value with the existing authority.

Key words: Gifts, Arabic culture, Cultural studies, Reciprocal value.

المقدمة

اجتاز العراق في هذا القرن مرحلةً شاقةً من مراحل حياته؛ فقد هيمنت على المجتمع العراقي سلطةٌ سياسيةٌ مستبدةٌ أدخلته في أزماتٍ متنوعةٍ في كلّ مرافق حياته. كان تأثير هذه الأزمات كبيراً على موازين الحياة الإنسانية وقيم المجتمع، مثلما كان تأثيرها على حياة الأفراد الاقتصادية، وجرَّت هذه الأزمات إلى انهيارٍ اجتماعيٍ كبيرٍ، فأدَّت إلى اختلال القيم الاجتماعية، وأصبحت هموم المجتمع هموماً فرديةً ذاتيةً، وأصبح كلّ شخص يبحث عن مصالحه ومنافعه في ظلّ حكمٍ استبداديٍ قمعيٍ حوَّل قيم الإنسان إلى أشياء تُباع وتُشترى بالمال والمنصب وإضفاء الجاه والشهرة.

تمثَّلت السلطة السياسية في صورة سلطةٍ مقدسةٍ أو شبه مقدسة أضفتها عليه النخب الدينية. ولم تكن هذه الصورة ذات طبيعةٍ قانونيةٍ-رسميةٍ فحسب، بل

تألفت من قواعد غير رسمية خاصة بالإجلال، والولاء، والإيمان بأنَّ السلطان يمثل النظام الأخلاقي الأعلى. وتعدّ ظاهرة إسباغ الألقاب على السلاطين من قبل الشعراء وأمثالهم خاصّة الصفات الدينية والمُثل الأخلاقية التي ترمز إلى الفضيلة، والبطولة، والسيادة والعدالة والنظام الإسلامي؛ ظاهرةً مؤثرةً في تعزيز النهج الاستبدادي والاستئثاري في السلطة وتحكمها في مقدرات الشعوب. وفي المقابل أدّى تفاعل السلاطين مع هذا النهج المدحي إلى تكريسه نسقاً من أنساق التعامل مع السلطة ما يعزِّز الحالة الاستبدادية أيضاً. الأمر الذي يرجح القول معه أنَّ الواقع الاستبدادي للسلطة لم يكن قائماً على طرفٍ واحدٍ وهو السلطة السياسية فقط؛ بل هناك من الفئات التي تمثّل النخب الثقافية ما عزَّزت، في خطابها الوعظي والمدحي، مع نهج السلطة الاستبدادي. لكن هذا لا يعني أنَّ طرفي المعادلة، السلطة وهذه النخب، يتساويان في تكريس نهج السلطة الاستبدادي، وإنّما يتفوّق الجانب الممسك بالسلطة بفارقٍ كبيرٍ في تكريس هذا النهج، بملاحظة النفوذ والإمكانات والتأثير، وهو ما تؤكده الوقائع والأمثلة التاريخية.

كان أغلب شعراء القرن التاسع عشر قد سلكوا في شعرهم مسلك أيّ شاعرٍ لا يرى بأساً من جعل الشعر سلعةً تهدى في سياق التزلف والتقرب إلى السلاطين والولاة أو أيّ موظفٍ من موظفي الدولة، ولا تعليل لذلك غير قسوة الحياة وطمع الشاعر وتفاوت النفسيات قوةً وضعفاً وكون الشاعر يعيش في بيئةٍ ليس لشعرائها إلَّا هذا المسلك الذي عملت السلطة على صناعته ثقافياً، وأعدَّت لسلاك هذا الطريق ورواد هذا السوق السلطاني الهبات والمنح والقرب والزلفى منهم، مع التأكيد على أنّه لا يصح إلقاء اللوم كاملاً على السلطة وحدها بل أنّ لبعض الشعراء الطامعين جزءاً في تكريس هذا السياق. ويمكن تلمس أنماط الهبات والهدايا وسياقاتها الثقافية في عدة محاور كما سيأتي في ثنايا البحث.

أولاً: هدايا السلطة للعلماء وهباتهم.

نجـد في القرن التاسـع عشر التقاربَ واضحاً بين السـلطة والعلـماء، والتخادم بين السـلطة السياسية والسـلطة الدينية واضح المعالم، وهدايا السلطة السياسية للعلماء من أهـمِّ أنـماط الهبات في هـذا العصر. فقد حاز علـماءُ بغداد على أهـمِّ المناصب في الدولة ومُنحوا الأوسمة والنياشين الفخرية والعلمية مع ما تدرّه عليهم من موارد اقتصادية.

كان الـوالي داود باشـا ممن عمل على التقرّب من العلـماء؛ فكانت هباته عليهم ذات أثـرٍ كبـيرٍ في دعم سـلطته، فقـد أوقف موقوفـاتٍ كثيرةً عـلى جامع الآصفيـة، وجعل فيه مدرسـين اثنين وحـدّد رواتبهم في سـنة (1243هـ-1828-م)، وعمَّـر جامع الحيدر خانة سـنة (1234هـ-1819-م)، وسُـمّي في عـصره بجامع الداودية نسـبةً إليه، وجعل فيه مدرسـةً وخزانةَ كتبٍ وجعل لنفسـه حق تغيير شروط الوقف، وكانت له وقفيّات أخرى جعلها لنفسـه ثـم لمن بعده، وبالنتيجـة ترجع غلّتها بعد الانقـراض على جامع الحيـدر خانة. ويصف أحد المؤرخين ذلك بقوله: «وفي هذه الوقفيّات ما يعيّن ممتلكاته ممـا وقفـه... ومنها يُعرف غناه وما اسـتولى عليه» (العـزاوي (د.ت)، ينظر: 6/ 340-341)، وقضية وقف الذرية حيلةٌ استعملها لاستمالة العلماء إلى جانبه، وفي الوقت نفسه يضمن عدم نهب أمواله من الولاة الذين سيأتون بعده.

ولم يكـن تعاملـه مع العلماء على حدٍ سـواء، بل كان شـديداً في التضييق على العلماء الذيـن لا يطلبـون الزلفى والقرب لديه ولا يُصانعونه ويتملقـون بين يديه. ومن ذلك ما يذكره لنا مفتي العراق أبو الثناء الآلوسي في سيرة أستاذه العلامة الشيخ علاء الدين عـلي أفندي الموصلي الذي كان من كبار علماء بغداد وأسـاتذتها المرموقين، ولكنّه لعدم مداراته ومصانعته لداود باشـا فقد عاش حياة البؤس والفاقة، فيقول: «ومن العجيب أنَّ داود باشـا عـلى فضلـه، لم يعرف فضله، وأحلَّـه في غير محلِّه وما أجلَّـه؛ وذلك لأنَّه مـا صانعَـهُ ولا داراه... واتفـق أن أمر لـه إذ ذاك ببردةٍ فأبى أن يقبـل كرمهُ في المجلس وردّه، فأضمر ذلك في نفسـه حتى اسـتوزر، فأظهر من سـوء معاملته إيـاه ما أظهر...

حتى أنّه أمر بنفيه إلى الحدباء، فحدب عليه ورجا إثباته بعض أجلاء الزوراء فأثبت ولكن في همٍ لا يُحد...» (الآلوسي 1327هـ، 9)، ومن ذلك يتبيّن سلوك داود باشا في هباته ومنحه وتقريبه للعلماء، وعلى أي سياقٍ يسير، فهو يعمل على تعزيز سلوكه الاستبدادي وحكمه بأي وسيلةٍ كانت، ويزيل من طريقه أي معارضٍ وإن كان من كبار علماء العراق.

وفي سياق التخادم السياسي الديني يُهدي علي رضا باشا والي العراق للحكم العثماني المباشر إلى أبي الثناء الآلوسي كتاب **الميزان** للشعراني الشافعي[1]، ويذكر صاحب **حديقة الورود** أنّ «إهداء **الميزان** إجازةٌ بتوليةِ مرجان، وهي من خواصِ مفتي الحنفية من زمن السلطان مراد خان إلى هذه الأزمان، وكانت على ما يُحكى في الزمن القديم مشروطةً لأعلمِ أهل بغداد بكتابِ الله وحديثِ نبيه» (البغدادي (د.ت)، 1/ 31)، وجامع مرجان من الجوامع الكبيرة والتاريخية في ذلك العصر وله أوقافٌ تدرُّ خيراً كثيراً. فيمدحه الشعراء على هذه الهديّة (البغدادي (د.ت)، 1/ 30-31). ويقول عبد الباقي العمري في ذلك:

بدرُ الخلافةِ قد أهدى لمخلصهِ ... شمس الأئمةِ يا بشرايَ ميزانا

البغدادي (د.ت)، 1/ 30)

ويقول أيضاً:

لأبي الثنا المحمودِ في أفعالهِ ... كشّافُ رمزِ معلّمِ الفرقانِ

أعطى الوزير علي الرضا سفراً علا ... بشعارِهِ يُعزى إلى الشعراني

ميزانُ حقٍّ للمذاهبِ ذاهبٌ ... بعلوٍّ منصبهِ على كيوانِ (العمري ١٩٦٤م، ٤١٧)

(1) **عبد الوهاب الشعراني**: فقيهٌ محدثٌ صوفيٌ من كبار علماء مصر، ولد عام (898هـ) وتوفي عام (973هـ)، له مؤلفاتٌ كثيرةٌ في الفقه والأخلاق والتصوف، وكتابه **الميزان** من أشهر كتبه في الفقه الإسلامي وأصول الفقه جمع فيه ما اتفق عليه أئمة المذاهب الأربعة. ينظر: مقدمة الكتاب: عبد الوهاب الشعراني، **الميزان**، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت- لبنان، 1989م.

ومُنحَ الآلوسي منصبَ مفتي بغداد بعد توليته جامعَ مرجان، على إثر الخدمات التي قدمها للدولة العثمانية. وتوالت المنح والأوسمة عليه؛ فبعد شروعه في كتابة تفسيره **روح المعاني**، وإكمال المجلد الثالث من التفسير مُنح وسام الافتخار المرصع (البغدادي (د.ت)، 1/ 124) من الأستانة، فانبرى الشعراء مهنئين ومادحين له منهم عبد الغفار الأخرس بقصيدةٍ مطلعها:

لك بالمعالي رتبةٌ تختارُها فافخرْ فأنتَ فخارُنا وفخارُها

(الأخرس 1986م، 465)

ويمدحه صالح التميمي بقصيدةٍ يقول فيها:

أهدى لصدركَ جوهراً متيقناً في لجٍّ صدركَ معدنٌ من جوهرِ

لكنَّهُ أهدى نفيساً مظهراً فيه يشيرُ إلى نفيسٍ مضمر

(التميمي (د.ت)، ٥٩)

وعندما تسوء علاقة الآلوسي بوالي بغداد نجيب باشا يُجرّده من منصب الإفتاء وتولية أوقاف مرجان. وفي سنة (1267هـ-1851م) ترك بغداد مسافراً إلى الأستانة لغرض استعادة ما سُلب منه. وأول من قصده هناك شيخ الإسلام عارف حكمت[1]، فعرض عليه تفسيره وما جاء من أجله ونزل دار الضيافة السلطانية وكتب كتاباً إلى الصدر الأعظم أشفعه بهذه الأبيات:

قصدتُ من الزوراءِ صدراً معظماً وقد سامني ضرٌّ وقد ساءني دهرُ

وقلتُ لنفسي والرجاء موفرٌ لنا الصدرُ دونَ العالمينَ أو القبرُ

(الآلوسي ١٣٢٧هـ، ١٢٤)

ثم يعود إلى مدح المستشار فؤاد، والصدر الأعظم، والسلطان بأبيات يرجو بها

(1) **أحمد عارف حكمت**: قاضٍ تركي المنشأ، عربي الأصل، اشتهر بخزانة كتبٍ عظيمةٍ له في المدينة المنورة. وليّ مشيخة الإسلام في الأستانة سنة (1262هـ-1846م) فاستمر سبعة أعوام ونصف عام، وأقيل سنة 1270م، ينظر: الزركلّي، **الأعلام**: 1/ 141.

قضاء حاجته ليعود إلى أهله فيقول:

أرى دولةَ الإسلامِ شخصاً فرأسُهُ ... ملاذُ الورى السلطانُ والصدرُ صدرُه
وأنتَ بلا ريبٍ فؤادٌ وحبّــذا ... فـؤادٌ حــوى العرفــانَ لله درّه
فيـا سيدي قد طـالَ بالعبدِ غربةٌ ... فمنّــوا عليـه أن يُحرّر أمـرُهُ
ليغدوا إلـى أهليه بالخيـرِ داعياً ... ويبقى لكم ما عاشَ بالمدحِ ذكرُهُ

(الآلوسي ١٣٢٧هـ، ١٤١-١٤٢)

والمـدح في هذه الأبيات يحمل دلالتين ثقافيتين إحداهما تعني انتماء الشـاعر وولاءه للسـلطة انطلاقـاً مـن عقيدته التـي تحتّم عليه طاعـة السـلطان مهما كانت حالتـه، أمّا الدلالـة الثانية فهي دلالةٌ مضمرةٌ تخالف الدلالة الأولى، فهي توحي بأنَّ المديح لم يكن منبعثـاً عن ذلـك الانتماء والولاء الحقيقي، وإنما كانت الحاجـة المادية هي التي أجبرت الآلوسي على مثل هذا المديح، وهو ما يكشـفه البيتان الأخيران من اسـتمالةٍ للممدوح (حسـن 2017م، ينظـر: 224)، ولـذا نـراه يكشـف عن حاجتـه بعد اسـتمالة ممدوحه، ويلتمس منه تحرير المرسوم السلطاني القاضي بإرجاع ما سلبه نجيب باشا منه (البصير 1943م، ينظـر: 247)، فلـم تلبِّ السـلطة العثمانيـة طلبه، ولم ترجع له مناصب سـلطة الإفتاء وتولية أوقاف مدرسـة مرجان له، إلَّا أنّه صدرت إرادة السـلطان بإعطائه مبلغ خمسـة وعشرين ألف قرشٍ إسـطنبولي ولـه مثلها أو ما يزيد عليهـا في كلّ عام من بيت المـال، وراتب منصب قاضٍ في مدينة أرضروم، وأنعم عليه شـيخ الإسـلام بخمسـين ألـف قرشٍ إسـطنبولي من خالص مالـه (الآلوسي 1327هـ، ينظـر: 127-128، 131-132)[1] وألّـف أبو الثناء الآلوسي كتاباً في ترجمة شـيخ الإسـلام جزاءً وشـكراً لأنعمه عليه وأهداه له وسماه (**الصادح بشهيِّ النغم على أفنان ترجمة شيخ الإسلام ووليّ النعم**)

(1) وقد ألف أبو الثناء كتابين عن رحلة الذهاب إلى الأستانة والإياب منها هما: **نشوة الشمول في السفر إلى إستانبول**، وكتاب **نشوة المدام في العود إلى دار السلام**. ينظر: أبو الثناء الآلوسي، **نشوة الشمول في السفر إلى إستانبول، ونشوة المدام في العود إلى مدينة السلام 1851م-1852م**، تحقيق وتقديم: هيثم سرحان، طباعة دار السويدي للنشر والتوزيع في أبو ظبي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، ط1، 2019م.

قائـلاً في مقدمته: «فأحببت أن أشـنّف الأسـماع بجواهر ترجمته، وأفـوق البقاع بطراز آثـار حكمته...أروي شـيئاً من أحوالـه وأقواله، فأروي صدات عشـاق العراق بنمير زلالـه، ويكـون ذلك هديّتي إذا عدت إليهم، وتحفتي لهم إذا قدمت بالخير إن شـاء الله عليهم..». (الآلوسي (د.ت)، 5-6)، وينشد أبياتاً في مدحه منها:

فردٌ بمثـلِ كمـالِهِ ونـوالـهِ ... لم تسمحِ الدنيا ولا أعصارُها
دنيا بها انقرضَ الكرامُ فأذنبت ... وكـأنما بوجـودِهِ استغفارُها

(الآلوسي (د.ت)، ٥).

عملـت الدولـة العثمانيـة أيضاً على تكريـم أسرة آل النقيـب الكيلانيـة والرفاعية، ومنحهـم الهبات والأوسـمة لولائهم ولمـا يقدمونه من خدمات لها، والسـلطة مدركةٌ عظـم تأثيرهم الروحي والاجتماعي على الناس. وكانت مناسـبات منحهم الأوسـمة والنياشـين هـي مواسـم لارتفـاع حظـوظ الشـعراء ورواج قصائدهـم. فبعـد أن يرد النيشـان الممنوح للسـيد عـلي الكيلاني النقيـب[1] من السـلطان عبد العزيز ينشـد عبد الغفار الأخرس قصيدته مهنئاً فيقول فيها:

أَنتُمُ البحرُ ومـا زلـتُ بكم ... مستمدّاً منـكمُ البحرَ المديدا
فاهنـا بالنيشانِ من سلطاننا ... مُبدِئـاً للفخرِ فيـهِ ومعيـدا
ذلـك اليوم الَّذي وافـى به ... كانَ للأَشرافِ في بغدادَ عيدا

(الأخرس ١٩٨٦م، ٦٥٦)

وكان السـلطان عبـد الحميـد الثـاني شـديدَ الاهتـمام بعلـماء الدين ومشـايخ الطرق

(1) **السيد علي القادري النقيب**: هو السيد علي بن السيد سلمان بن مصطفى من ذرية الشيخ عبد القادر الكيلاني، كان من أعيان العراق ونقيباً للسادة في ولاية بغداد وشيخاً للطريقة القادرية في العراق، ومتولياً شرعياً على أوقاف مسجد عبد القادر الكيلاني ومرقده، وكان محترماً لدى السلاطين والولاة، وله صلاتٌ طيبةٌ مع العلماء والأدباء، وقد مدحه كثير من الشعراء منهم عبد الباقي العمري وصالح التميمي والأخرس، توفي سنة 1289هـ/ 1872م ودفن في الحضرة القادرية ببغداد، ينظر: إبراهيم فصيح الحيدري، **عنوان المجد**: 88، وينظر أيضاً: إبراهيم الدروبي، **البغداديون**: 5.

الصوفيـة، يقرّبهـم ويبذل لهـم الأموال والهبـات، ويعبّر عـن ذلك إسـماعيل الواعظ في مذكراتـه، وكان معاصراً له في العراق: «كان يحترم أهـل العلم والطرائق ويعلّي قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ ورتّب رواتب للأعضاء الذين هم فيه، وكانت نيّته حسـنةً مع مرشديهم، غير أنّ المرشدين كانوا يحتالون لجرّ المغانم منه، وكان أرباب العلم ذوي رتبٍ عالية، كلّ ذلك لأجل إعلاء العلم وأهله» (الواعظ 1948م، 280–281).

وفي عـام (1886م) أهدى السـلطان شـعرات النبي صلى الله عليـه وآله إلى عددٍ من الجوامع المشـهورة في العالم الإسـلامي، فأصـاب كلّ جامعٍ منها شـعرةٌ واحدةٌ. وكان يوم وصول الشـعرات يوماً مشـهوراً في كلّ مكان وصلت إليه حيث خرج المسـلمون جميعاً يسـتقبلونها بالتهليل والتكبير وبالدعاء للسـلطان. وكان نصيب العراق من تلك الشـعرات خمساً خُصِّصَتْ لجوامع أبي حنيفة والكيلاني والكاظمية وكربلاء والنجف. وكان يوم وصولها إلى جامع الإمام الأعظم يوماً مشـهوداً جرت فيه احتفالات كبيرة، وقـد خُصِّص للشـعرة وقتٌ معينٌ، وهو آخر جمعةٍ من كلّ شـهر رمضان، حيث تخرج للمصلـين باحتفـالٍ مهيبٍ، فيسـتقبلونها بالتهليل والتكبير. وكان الوالي حسـن باشـا يخرجها بنفسه تبركاً بها (الأعظمي 1964م، ينظر: 72–75).

وعندمـا أوصل الوالي حسـن باشـا الشـعرة المخصصة لحـرم الإمام الحسـين عليه السلام في كربلاء انبرى الشاعر جعفر الحلي مدحاً الوالي، وشاكراً السلطان عبد الحميد بقصيدةٍ مطلعها:

بشرى العراق ففيكَ أشرقَ نورها ... هـي جنةُ الدنيا وأنتَ وزيرها
قـد جئتَ من شعرِ النبـي بطاقةٍ ... نفـحَ الخلائقُ نشرَها وعبيرَها
فلنشكـرنّ رعـايةَ الملكِ الذي ... هو ظلّ كلّ المسلمين وسورها

(ج. الحلي ١٣٣١هـ، ٢٧٥-٢٧٦)

وكأنّ هذا العمل يمثّل رعايةً للمسـلمين، وظللاً يظلهم من الفقر والجوع والفساد الإداري واسـتبداد السـلطة، فالشـاعر يتغافل هذا كلّه، ويتزلف إلى السـلطة مسـتغلاً

مناسبةً اختلقتها السلطة لاستغفال الناس، متكسباً بشعره طامعاً بهبات السلطة الضئيلة، بعرفٍ شعري وثقافةٍ غرضيةٍ، جاعلاً من مجيء الوالي بشارة للعراق الذي ارتفع بطيب العيش والعدالة؛ ليكون جنة الدنيا ما دام الوالي وزير السلطان فيها.

ثانياً: هبات السلطة وهداياها لولاتها.

اهتمَّ الأدبُ بتصوير هبات السلطان العثماني إلى ولاته في العراق، وإن كانت بسيطةً غير مبالغٍ بها. ويخال للباحث أنّ بعض تلك القصائد التي قيلت في وصف هبات السلطان هي بتلميحٍ من المُهدى إليه لشاعره المتزلّف والطامع دوماً بالجائزة؛ فيسرع لنظم قصيدةٍ يؤرّخ فيها الهبة وينساق مع الأعراف الثقافية لقصيدة المديح مضخماً في الهبة وواهبها والموهوبة له.

وعندما يقوم الوالي بأعمالٍ يعزّز فيها نفوذ السلطة العثمانية، ويقضي على أعدائها داخلياً وخارجياً، فإنَّ الأستانة تقوم بمنحه خلعةً أو سيفاً أو أي شيءٍ من مقتنيات السلطان الشخصية تكريماً له. وهذا ما نجده في قصيدة لصالح التميمي مهنئاً داود باشا بورود خلعةٍ سلطانيةٍ له، فيقول:

بشائرُ نعمىً لا يقومُ لها شكرُ ... وتجديدُ فخرٍ لا يقابلُهُ فخرُ
تسربلَ داودُ الوزيرُ مطارفاً ... وما هيَ إلا الحكمُ والنهيُ والأمرُ
مطارفُ خاقانيةَ النسجِ لونُها ... لهُ الأبيضُ الفتّاكُ لا البيضُ والصفرُ
كسى العزَ آفاقَ العراقِ فأرضُهُ ... جوانِبُها من سحبِ نائِلِه خُضرُ
وكيف تُعَدُّ البيضُ بيضاً وفي الوغى ... مواضيه قد عادتْ وألوانُها حمرُ

(التميمي (د.ت)، ٦٣)

عمد الشاعر إلى جعل أثواب الخزِّ الموهوبة للوالي ذاتَ دلالات تغادرُ ظاهرها؛ لترتبط بكونها ارتسمت بمجازر الوالي التي يفتخر الشاعر بها، فألوان نسيجها هنَّ سيوفُ الوالي المصطبغة بدماء العشائر المنتفضة ضد جور الولاة وظلم جباة الضرائب في الفرات الأوسط وغيرها. وداود باشا بأعماله هذه جلب العزّ للسلطان العثماني

وبسط نفوذ الدولة بانتصاره على أعدائها.

أما عبد الغفار الأخرس فيقول مهنئاً الوالي محمد نامق باشا[1] بالهديّة التي وردت إليه من السلطان عبد العزيز، وهي عبارةٌ عن علبةٍ تحوي عطوراً للاستنشاق تسمى الأنفية:

إنَّ مليكَ العصرِ من قدْ عَلا ... على ملوكِ الأرضِ طُراً وَفاقْ
أهدى إلى النامقِ أَنْفِيَّةً ... أعَدَّها السلطانُ للانتشاق
ذو نعمةٍ تُسدى لأهلِ التقى ... وسطوةٍ تُرهبُ أهل النفاق
نائلهُ عذبٌ بيومِ النَّدى ... وهو بيومِ البأسِ مُرُّ المذاق

(الأخرس ١٩٨٦م، ٦٢٣-٦٢٤)

تحمل هذه الأبيات في دلالاتها تصويراً مخالفاً لما كان عليه حال العراق من ظلمٍ وجورٍ، وقمعٍ لثورات العشائر المتكررة بسبب سياسات الضرائب الخاطئة، ومحاولة نامق باشا زيادة الضرائب في بعض المناطق وتشدده في جمعها؛ فتمكّن نتيجةً ذلك من إرسال مبالغَ جسيمةٍ إلى العاصمة عَمَّر بها السلطان عبد العزيز، المعروف باستعماله أموال الدولة من أجل ملذاته الخاصة، قصراً أطلق عليه اسم بغداد (النجار 1991م، ينظر: 57). ولعلّ تلك الأموال التي كان يرسلها نامق باشا إلى الأستانة كانت سبباً في بقائه في منصبه لمدةٍ طويلةٍ قياساً على مدة غيره من ولاة ذلك العهد. وأيضاً كانت سبباً في منحه الأوسمة والنياشين التي منحها إياه السلطان عبد العزيز، وفيها نظم الأخرس أيضاً قصيدةً على منوال السابقة مليئةً بالتملّق والتزلّف يقول:

(1) **محمد نامق باشا الكبير**، من أهل قونية، نال منصب ولاية بغداد في سنة 1265هـ/ 1848م، ثم نقل في سنة 1269هـ/ 1852م إلى مشير المدفعية في إسطنبول وفي سنة 1278هـ/ 1861م عاد والياً على بغداد ثانية ومشيراً للعراق والحجاز، ومنح الوسام المرصع سنة 1281هـ/ 1864م، ثم نقل إلى الأستانة بمنصبٍ أرفع سنة 1284هـ/ 1867م. مدحه كثير من الشعراء منهم أحمد عزة الفاروقي وأحمد قفطان النجفي، وعبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس، توفي سنة 1310هـ/ 1892م. ينظر: إبراهيم الحيدري، **عنوان المجد**: 167، وينظر: عبد الباقي العمري، **الترياق الفاروقي**: 284، وينظر أيضاً: عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**: 7/ 156.

هنِّيتَ بالفرمان والنيشان ... من جانبِ الملكِ العظيمِ الشانِ
ولقد أعزَّ الدّينَ دينَ محمّدٍ ... عبدُ العزيزِ بملكهِ الخاقاني
فالله يعلمُ والبرّيةُ كلّها ... أنَّ المليكَ خليفةُ الرحمن

(الأخرس ١٩٨٦م، ٣١٠-٣١١)

ويعمل هذا الخطاب الشعري على جعلِ سياق الهبة طريقاً إلى تغذية الرأي العام عند الناس بمفاهيم الخلافة الدينية، وأنّ السلطان العثماني هو معزُّ دينِ محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وهو خليفة الرحمن في أرضه، عبر صناعة ثقافةٍ انخرط في سلكها الأدباء والعلماء ضمن عرفٍ ثقافيٍّ ممتدٍ، جعل المديح مفتاحه إلى التزلف والتقرب، ونيل الحظوة عند الوالي والسلطان. بينما يخالف الواقع كلّ هذه الدلالات المبثوثة في طوايا الأبيات، فالخليفة العثماني في أبهى صوره هو «المبذّر المتلاف» (الوائلي 1978، 25) و«المتهتك الشهواني» (باتريك 2011م، 26)، الذي أنهى حياته منتحراً بعد خلعه من المُلك وتجريده من ممتلكاته (باتريك 2011م، 26-27).

ثالثاً: هدايا السلطة للشعراء وهباتها.

قصد الشعراء السلطة مادحين وطالبين للهبات والمنح بدلالات مباشرة أو مضمّنةٍ، ولم تقتصر هبات السلطة للشعراء على مناسباتٍ محددةٍ، بل كان السياق الثقافي العام للسلطة تعزيز مجدهم عبر رعاية شعراء منتمين للبلاط، يصنعون ثقافةً تمجّد السلطان والوالي، مبتغين في ذلك لقمة العيش، وهذا ما يقول الشيخ صالح التميمي في مدح داود باشا:

ومرتاعةً خوفَ الفراقِ تشيرُ لي ... بهجرِ القوافي خيفةً أترحلُ
فقلتُ لها من أخصبَ الأرضَ وبلهُ ... على ندواتِ الطلِّ لا يتطفلُ
فلا يُرتجى إلا الوزيرُ لفاقةٍ ... لأنَّ الرجا من صاحبِ الفضلِ أفضلُ
أبو حسنٍ لو أنَّ للغيثِ جودَهُ ... لما مرَّ عامٌ بالبريةِ مُمحلُ

(التميمي (د.ت)، ١٠٠-١٠١)

وهي محاورةٌ ثقافيةٌ بين الشاعر والمرأة تذكرنا بمحاورة جرير مع امرأته في مدح عبد

الملك بن مروان التي مرّت في الفصل الأول، وما كانت المحاورتان إلا بحثاً عن الهبات والعطاء، وقد أسبغ التميمي على الممدوح كلّ مظاهر الرفعة مع التركيز على الكرم، لأنّ الخطاب المدحي تحوّل إلى وسيلة ثقافية ترمي إلى تزيين الممدوح، وذكر مآثره من أجل الحرص على إرضاء من صنعت الثقافة له، وبالتالي الفوز بهبة الممدوح عن طريق ثقافة السؤال، واستمالة الممدوح عن طريق وصفه بأنّه صاحبُ الفضل، وأنّ الفضلَ لا يُرتجى إلَّا منه، ورسم صورةٍ مثاليةٍ للممدوح، ولا يهمّ الشاعر في سياق العرف الشعري والثقافي أنَّ هذه الصورة حقيقيةً، أم مجردَ حيلٍ نسقيّةٍ تُمارس دوراً في التعمية الثقافية لإرضاء الممدوح.

والشاعرُ المنتمي يكونُ في أغلبِ أحواله تحت إمرة السلطةِ ولسانَها الناطق، يدافعُ عنها ويسوّغ مواقفها، مزيّفاً صورة الواقع بكلّ أنواعه السياسي والاجتماعي والثقافي، «حتى صار يقاس رقي الخطاب بمقدار تعاليه على شروط العقل وفاعليته، ...، أي قتل الحقيقة، فإنَّ اللازمة الدلالية تفضي أيضاً إلى تصوير الباطل في صورة الحق» (الغذامي 2008م، ينظر: 112)، وهذا التصوير المزيّف يبرز في دلالةٍ ثقافيةٍ تمارس صناعة الثقافة السلطوية التي تُخضِع الذات الثقافية العربية، فتفقد عنصر الصدق، لأنّ السلطة تسعى إلى تأسيس المغالطات من خلال التشبّه بالمُثل الدينية والأخلاقية.

وفي سبيل الحصول على ما كان يوليه السلطان عبد الحميد على الشعراء من هباتٍ عن طريق منافذه المتعددة في العراق، سواء عن طريق الولاة أو غيرهم ممن يرتبط بالعثمانيين إدارياً أو سياسياً، فقد توسَّل السيد جعفر الحلي بشتى هذه الطرق في سبيل ذلك. ومن خلال قصائد الشاعر المدحيّة ندرك بوضوحٍ ما كان عليه الشاعر من معرفةٍ حاذقةٍ بمتطلبات سوق السلطان. فنجد توظيف البعد الديني والبعد السياسي واضحاً في قصائده المدحية بحق عبد الحميد الثاني أو من يُمثّله من ولاة وغيرهم. فهو يُبارك ذكرى مولد السلطان في قصيدةٍ مادحاً فيها واليه على بغداد عطاء الله باشا الكوكبي:

لَمعت عَلى كلّ الرِقاب هباتُهُ ... فَكـــأنهنَّ قَلائـدٌ وَعُقـودُ
أَبلغ إمـامَ المسلميـنَ تشكراً ... مِنـا كَثيراً مـا عَلَيهِ مَزيـدُ
وَكفت عَلى كلّ الجِهاتِ أَكفُـهُ ... فَجَرى السَماحُ خِلالَها وَالجُودُ
لا سِيمـا النَجف الشَريف فَأَهلُهُ ... لِعُـلاهُ تبدي بِالدعـا وَتعيدُ

(ج. الحلي ١٣٣١هـ، ١٨٥)

فتأكيد صفة الكرم والتدليل عليها بكثرة الهبات إنَّما هي دالةٌ ثقافيةٌ على الاستجداء واستيهاب العطايا التي يبتغيها، ويؤكِّد أيضاً البعد الديني والسياسي في «إمام المسلمين» تلك الصفة التي حاول عبد الحميد الثاني إسباغها على نفسه وأنَّه موحِّد المسلمين تحت سلطته، و«النجف الشريف» «تبدى بالدعا» في إعلانٍ للولاء وتقديم الطاعة.

ويمدح جميل صدقي الزهاوي السلطانَ وجيوشه في حرب اليونان، وكان إذ ذاك في الأستانة، فيقول في قصيدته **الفتح الحميدي**:

لسلطـانِنَا عبد الحميدِ سيـــاسةٌ ... طريقتُها في المعضلاتِ هي المثلى
سللتَ لنصرِ الدينِ سيفَ عزيمةٍ ... فللـتَ بِهِ ما لم يكن فلُّهُ سهـــلا
فجهّزتَ جيـشاً للجهادِ عرمرماً ... قهرتَ بِهِ ذاكَ العـدوَ الذي ولى

(الزهاوي ١٩٥٥م، ١-٥)

وقـد راقت هذه القصيدة للسـلطان، فمنحه رتبةً دينيةً ووسـاماً مجيديّاً من الدرجة الثالثـة وأمـر بتعيينـه واعظاً عامـاً في اليمن عـام 1897م (بطـي 1923م، ينظـر: 8-9) (الخاقاني، شعراء بغداد من تأسيسها إلى اليوم 1962م، ينظر: 355).

ولم تقتـصر هبـات السـلطة للشـعراء على السـلطة العثمانيـة في العراق بل اتسـعت لتشـمل سـلاطين القاجـار في إيـران؛ فقـد أتاحـت المعاهداتُ السياسـية بـين الدولة العثمانية والدولة القاجارية الطريقَ إلى تحوّل الحرب العسـكرية بين الطرفين إلى حربٍ عـلى النفوذ الشـعبي والديني والسـياسي. وهذا ما يجـده الباحث واضحـاً في النصف الثاني من القرن التاسـع عشر؛ حيث عملت السلطتان على جذب العلماء بالمنح الخيرية

وإعـمار العتبـات وغيرهـا، وكذلك ما قامت به من فتح سـوقٍ أدبيةٍ للشـعراءِ الذين لم يتوانَ بعضهم عن كيل القصائد المادحة طمعاً بالهبات والجوائز التي يسـوقها السلطان لمادحيه. وكان لتردي أحوال العراق الاقتصادية، والحاجة المادية الماسة لأغلب الأدباء السـبب الرئيـس في لجوئهـم إلى أي أملٍ في الغنـى وكفاف العيش يلوح لهـم، حتى لو اقتضى ذلك السفر إلى مواطن الهبات والمكافئات.

ويعدُّ الشـاعر جابـر الكاظمي المتوفى سـنة (1313هـ/ 1895م) من أوائل الشـعراء الذيـن سـافروا إلى إيران وقصـدوا مدح الشـاه القاجاري. وقد سـافر أول مرة في أيام السلطان فتح علي شاه سنة (1242هـ/ 1826م)، والثانية في عهد السلطان محمد شاه سنة (1251هـ/ 1835م) ومدحه بقصيدتين. وسافر إلى إيران أيضاً سنة (1271هـ/ 1855م) وبقي هناك قرابة ثلاث سنين. وقد أعجب به أهل الأدب هناك ونال منزلةً كبرى عند رجال الدولة وأكابر الناس (الكاظمي 1964م، ينظر: المقدمة ح) وأيضاً (الخاقاني، من شعراء القرن التاسع عشر الشيخ جابر الكاظمي 1946م، ينظر: 41).

دَوَّن جابر الكاظمي في قصائده مناسـبات وأعمال القاجاريين، ولم تفته مناسـبة تمرُّ عليه إلا وأحسن استغلالها؛ لنيل هباتها ومنحهم، فيقول مادحاً أم نائب السلطنة زوجة السلطان محمد شاه؛ وذلك عند قدومها من الحج، وترجمها إلى الفارسية شعراً:

يا من سمتْ شمسَ العلى بسعودِها ... ولها الورى دانـتْ برغمِ حسودِها
وفـدتْ لبيـتِ اللهِ جلَّ جـلالُـهُ ... ثمَّ انثنتْ والعفوُ بعـضُ ورودها
أشكو إليكِ صـروفَ دهرٍ لم تزل ... تسعى خلافَ القصدِ في مقصودها
فـلأدعـوّنَ لكلّ من فوقَ الثرى ... ببقائها طـولَ المدى وخلودِها

(الكاظمي ١٩٦٤م، ٢٠٢-٢٠٣)

ويبـدو من اسـتيهابه الصريـح للمال، معرفتـه بالعرف السـائد عند أجواء السـلطة القاجارية في منح الشـعراء المال، ورغبة القاجاريـين بنشر مدائحهم باللغة العربية وفي

العراق تحديداً، والشاعر كفيل بالدعوة لها ولبقائها وخلودها.

ولم يقتصر المدح على شاعر الكاظمية، فمن النجف شاعرها المعروف الشيخ عبد الحسين شكر يقصد ناصر الدين شاه في إيران ويمدحه بروضةٍ شعريةٍ، وكان جزاؤها أن أجزل له العطاء فعاد إلى النجف، ثم سافر مرةً أخرى لطلب راتبٍ له فأبلغه الشاه مُناه، ورتّب له راتباً ثم عاد فسكن كربلاء، ثم عاد إلى إيران ومات هناك في طهران سنة (1285هـ/ 1868م) (مرعشي، ينظر: 216–217).

عُرف عهد ناصر الدين شاه بكثرة الوافدين من شعراء العراق لمدحه، وهذا الأمر لم يكن موجوداً قبل عهد القاجار أي في العهد الصفوي حتى عصر القاجاريين، ويعود سببه إلى معرفة الشاه باللغة العربية وأدبها، وكذلك أركان بلاطه ووزرائه وكبار المسؤولين في عهده، فضلاً عن الغرض السياسي من توظيف الجانب الإعلامي والثقافي للأدب في دعم سياساته وإنجازات حكمه (الخاقاني، شعراء الغري أو النجفيَّات 1954م، ينظر: 5/ 133). وغلب على هذه القصائد المدحية كونها قصائدَ تتكونُ من مدائحَ سياسيةٍ لنظام الحكم القاجاري، ومن استيهابٍ واضحٍ وطلبٍ صريحٍ للنوال والعطاء.

وتوجد في ديوان راضي القزويني النجفي قصائدُ في مديح الأسرة القاجارية، فقد اتصل بالشاه ناصر الدين القاجاري في أسفاره الثلاثة فأكرمه وأحله المكان السامي من محفله (الخاقاني، شعراء الغري أو النجفيَّات 1954م، ينظر: 4/ 3). ومن خلال قصائده يتبيَّن بوضوحٍ رواج سوق الهبات في مجلس السلطان يقول الشاعر في قصيدةٍ له:

يا أيُّها الملكُ المتوّجُ بالعُلا ... والمجدُ من آبائهِ الخلفاءِ

نزلَ الرجا ضيفاً بظلِّك والقرى ... يجبُ القيامُ بهِ على الكرماءِ

وأظنُّ لي حقاً عليكَ بنسبتي ... للمرتضى والبضعةِ الزهراءِ

إنْ لـمْ تكنْ للشعرِ عندكَ قسمةٌ ... مـوفورةٌ وآضيعــةَ الشعـراءِ
ولكَ المكـارمُ والفواضلُ كلّها ... إرثٌ منَ الأجـدادِ والآبــاء

(القزويني ٢٠١٤م، ٢٠-٢١)

ويُستشـف من هذه الأبيات فضلاً عن دلالة الاسـتيهاب العرفية الواضحة، دلالةُ البعدِ الديني في تعريف الشـاعر بنسـبته لآل البيت عند السـلطان؛ لمعرفة الشـاعرِ بأثرِ هـذا البعد عند السـلطان. ويمكن التدليل على ذلك بعد معرفتنـا أنَّ الحكم القاجاري امتاز بتعزيز أسـس دولتهم من خلال إضفاء سـمةٍ مذهبيةٍ عليها. فعهد القاجار يشـبه العهـد الصفـوي مـن حيث التعصـب المذهبـي، فقد حاولـوا إظهار أنفسـهم بكونهم نوابـاً للإمـام ومطبقـين للشريعة الإسـلامية ولشـعائر المذهـب، فحرصوا عـلى إقامة مجالـس العزاء والاحتفالات الدينية (مرعشي، ينظر: 232). وتسـتمر هبات السـلطان نـاصر الدين القاجـاري على العلماء والأدبـاء عندما زار العراق في عهد مدحت باشـا سـنة (1287هـ/ 1870م) أهـدى لكافة زائريـه في النجف مـن العلماء والأدبـاء هداياً ثمينةً، ومنها أنَّه أهدى للشـاعر السـيد موسى الطالقاني جبةً وعصاً مرصعةً بالأحجار الكريمة، وإلى هذه الهديّة يشير السيد أحمد الطالقاني مداعباً للشاعر بقوله:

أهدى لموسـى ناصرُ ... الديـنِ المؤيدِ طيلسانا
وحبـاهُ مـن ألطافِهِ ... بعصاً مرصعـةً فزانا
قد قلتُ ما هذي العصا ... بيديكَ قال لمن عصانا

(الطالقاني ١٩٥٧م، ٣)

استطاع ناصر الدين شاه تلميع صورة حكمه الاستبدادي القمعي بوساطة جمعه لـ«وعاظ السـلاطين» من حوله ولشـعراء الفـرس والعرب، ولرعايتـه وترويجه للمذهـب الجعفري، وصرفه المبالغ الطائلة على مراقد الأئمة عليهم السـلام في العراق. إلَّا أنَّ هذا كلّه كان مخالفاً لسـيرته مع شـعبه، ولم تسـتطع تلك الأعمال فضلاً عن قصائدَ الشـعراء من تغطية سياسـاته الاستبدادية (الطالقاني 1957م، ينظر: 4) و (العاملي 1983م، ينظر: 9/ 463-473).

وهناك دورٌ لعبه الشاعر عبد الباقي العمري الذي كان كما أشرنا سابقاً مقرباً جداً من السلطة، وتولى مناصبَ رفيعةً فيها، وبتصفحٍ دقيقٍ لديوانه يتجلّى لنا عمق تأثير الرأسمال الاقتصادي الذي منحته إياه السلطة، فمن رسالةٍ أدبيةٍ يبعثها للوالي نجيب باشا بمناسبة تتويج الشيخ عارف حكمت شيخاً للإسلام في الأستانة، مقدماً إياها أمامَ قصيدةٍ له مادحاً شيخ الإسلام فيقول في وصف نجيب باشا: «فيقول العبدُ المتشرِّف بنسبته للأبوابِ المنيفةِ السلطانيةِ، وخدمته للأعتابِ الشريفةِ الخاقانيةِ، دامتْ محطاً لرحالِ ذوي الآمال عبدُ الباقي الفاروقي الموصلي حفيدُ أبي الفضائل. على أنَّني منذ أعوامٍ لما كنتُ قاطناً بمدينةِ السلام متشخصاً بين الخاصِ والعام، خاصةً في هذه الأيام، بملازمتي خدمةَ شيخ وزراء العصر، ممهّدِ قواعدِ إعرابِ هذا القطر، ذي الهممِ الكافيةِ، والنعمِ الشافيةِ، الدستورِ الكبيرِ والمشيرِ الخطيرِ، مخدومي ووليّ نعمتي، الكاشف بمسحةٍ من يدِ إحسانِهِ غمتي، حضرة افندينا الحاج محمد نجيب باشا...» (العمري 1964م، 226). ولا يمكن تفسيرُ هذا الخطابِ المتذللِ للسلطةِ إلَّا بمعرفةِ كيفيةِ صناعةِ الثقافة في عصرِ الحكومات الاستبدادية، وسيرِ الأديب على عرفِ الثقافة السائدةِ التي تجعلُ منه أداةً بيد السلطة، وصوتاً إعلامياً لها، فهو «الذي يسعى للظفرِ بنظرة ودٍ من عين السلطة، وإذا ما ظفرَ بهذهِ النظرةِ يكونُ قد بلغ غايةَ المراد، ويمضي في حياته مستشعراً الأمانَ ما دامَ يستظلّ بجناحها» (عبد الحي 2004م، 11).

ولم تكن مدائح الشعراء تقتصر على رؤساءِ الوحدات الإدارية، بل وصل الأمر بالشاعر عبد الغفار الأخرس إلى مدحِ أحد صغار الموظفين لكي تقضى أعماله وتنفّذ رغباته، طمعاً بما يقدّمه ذلك الموظف وفق صلاحيات منصبه. فقد مدح كاتب العربية في ولاية البصرة عبد القادر أفندي الكولمند بقصيدةٍ جاوزت خمسين بيتاً، دون التقيّد برصانة الأسلوب والابتعاد عن الإسفاف والتدني الذي انجرف فيه جمعٌ من شعراء هذا العصر، في عرفٍ استجدائيٍ صريحٍ، فيبدأ قصيدته بالغزل التقليدي وينتقل إلى وصف كرم كاتب العربية، وأنَّ كرمه لم يزل يَهمى على المحتاجين بالفضلِ والنعم،

وكرمَه مثل الغيث المنهمر، وقد تعلَّم المطرُ منه هذا الجود، ومتى جئت تطلبُ منه المال حكَّمك في ماله، وقد ورد نداه ظامئاً فوجده البحر الطامي. في ابتذالٍ واضحٍ من الشاعر وامتهانٍ لكرامته في المديح (عز الدين 1965، ينظر: 68)، فيقول:

كرامةُ عبدِ القادرِ القرمِ لم تزلْ ... تهامى على العافينَ فضلاً وأنعما
يصبُّ الحيا في صوبِهِ مثلَ سيبِهِ ... كأنْ علَّم الغيثَ الندى فتعلَّما
إذا جئتَهُ مسترفداً رِفدَ فضلِهِ ... غدوتَ إذنْ في مالِهِ مُتحكما
وردّتُ نداه ظامئاً غيرَ أنَّني ... وردتُ لديهِ البحرَ والبحرُ قد ظما

(الأخرس ١٩٨٦م، ٥٣٥-٥٣٦)

ثم تتجلى رغبة الشاعر في نيل الهبات صراحة حين يقول في القصيدة:

وأثقلَ بالأيدي لساني وعاتقي ... ألم ترني لا أستطيعُ التكلّما
أطلتَ يدي في كلّ أمرٍ طلبتُهُ ... وغادرتُ شأني عبدُ نعماكَ أجذما

ويمدحه بقصيدةٍ أخرى يكرّر فيها معاني الجود للممدوح نفسه، ويقول إنَّه لا أمل له إلَّا نوال الممدوح وجوده قائلاً:

لم يبقَ لي أملٌ أرجّي نيلهُ ... إلَّا نوالُ يمينِ عبدِ القادرِ
لو لمْ يكنْ بحرُ النوالِ لما غدا ... يهبُ المؤملَ من ندىً وجواهرِ

(الأخرس ١٩٨٦م، ١٥٧)

وله فيه قصائدُ أُخر يبيّن فيها أنّه راتعٌ بالعزِّ من هباتِ عبد القادر وأموالِه لقاء مدحه (الأخرس 1986م، ينظر: 299-388).

رابعاً: مشاريع السلطة الخيرية (إعمار العتبات المقدسة) أنموذجاً

برز في القرن التاسع عشر نمطٌ لا يمكن تصنيفه ضمن الهبات والهدايا، وهو بناء القناطر على الأنهار وإنشاء سدودٍ بدائية البناء على ملتقى الأنهار للوقاية من الفيضانات، أو شق أفرع للأنهار لإيصال الماء إلى المناطق البعيدة عن مجرى النهر التي سرعان ما تندثر وتطمر، وإعمار المساجد والجوامع وغيرها؛ لأنَّه لم يقم على أساس

وجـود ركنين مُهدي ومهـدىً إليه كما لاحظناه في الأنماط السـابقة. إلَّا أنَّنا نلاحظ فيه بوضوحٍ نشـوء سـياقٍ ثقافيٍ هامٍ إلى الحـد الذي افترض زخماً كبيراً مـن الهبات والهدايا للشعراء؛ بسبب أنَّ هذا النوع من أعمال السلطة كان مناسبةً كبيرةً لرواج قصائد المديح وتلقّي أثمانها هباتاً وجوائز من السلطة؛ طمعاً في تخليد إنجازها وإسباغ الأهمية البالغة عليه، وعدَّه تفضّلاً ومنَّةً من السـلطان أو الوالي على رعيته، مع التغاضي عن عمدٍ بأنَّ كثيراً من هذه الأعمال هي أبسط حقوق الناس المسلوبة منهم.

ويمكـن عـدّ إعمار العتبات المقدسـة من هـذا النمط الذي لا يمكن عـدَّه من أنماط الهبـات وإن نشـأ في ظلّه هامـشٌ للهبات والهدايـا للأدباء والعلماء (النقـدي 1369هـ، ينظر: 77)، ويندرج هذا النمط ضمن سياقين سياسيين يكون عنواناً حقيقياً له، الأول هو التخادم بين السـلطة السياسـية والسـلطة الدينية، والثاني حذرُ السـلطانِ من رموزٍ دينيةٍ خوفَ انقلابِهم عليه أو تحشيدِ الناس ضده؛ فيتصرف معهم بمكرٍ ودهاءٍ سياسي في التخلـص منهـم، بتكلّيفهم بإعـمار العتبات بعد توفير المبالـغ الضخمة لذلك الأمر وجعلها تحت تصرف هذا الزعيم الديني.

وكان النصيب الأكبر من المدائح الشعرية في هذا السياق للدولة القاجارية وخاصة للسـلطان ناصر الدين شاه، ولم تقتصر هذه المدائح على شخص السلطان بل واتسعت لتشـمل القائمـين بإعـمار العتبـات المقدسـة مـن الأسرة القاجاريـة أو مـن يرتبط بهم (الكاظمـي 1964م، ينظر: 35، 222) (أبو الحب 2015م، ينظر: 125، 127) (القزويني 2014م، ينظر: 66) (جعفر 1962م، ينظر: 17) (ح. الحلي 2019م، ينظر: 59–60) (ح. الحلي 2011م، ينظر: 39–48).

اسـتطاع نـاصر الديـن القاجـاري كسـب ودّ بعـض مراجـع الديـن في النجف وكربـلاء وإيـران بأعماله هذه، فقد كان يسـتعملُ ورقـةَ الدين والتقـربِ إلى العلماء أحياناً؛ لتحقيقِ أغراضٍ سياسـيةٍ معينةٍ. وخاصة بعدما أعلنت بريطانيا الحربَ على

إيـران في سـنة (1856م) عقبَ قيامِ إيران بالاسـتيلاءِ على هـرات، فأخذت حكومة نـاصر الدين بالتوددِ إلى العلماءِ بهدف حثّهم على إصدارِ فتاوىً بالجهادِ ضد القواتِ البريطانيـةِ التـي هاجمت المحمرة. فقـامَ بأعمالٍ عدّةٍ منها إعماره للعتبات المقدسـة في إيران، وإرسـال عشرةِ آلافِ تومان إلى العتبات المقدسـة في العراق لتنفق في إعمارها (النجار 2016م، ينظر: 295–296).

ولم يكن هذا الجانب هو السبب الوحيد في ذلك بل عملت إيران على تقوية نفوذها السياسي والديني داخل المدن الشيعية المقدسة في العراق، وخاصة بعد معاهدة الحدود بينهـا وبين الدولة العثمانية والتي سـميت بمعاهـدة أرضروم الثانية التي أنهت الصراع العسـكري وحولته إلى صراع سـياسي. وكانت عملية بناء المـدارس الدينية في النجف وكربـلاء والدعـم المـالي المتمثل بالهبـات والهدايا للعلـماء وإعمار العتبـات، من جانب إيـران خطةً؛ لزيادة نفوذها من الناحية السياسـية في المنطقة (قايـا 2008م، ينظر: 97)، بعـد أن شـعرت الدولـة القاجاريـة بضعـف نفوذهـا على الحـوزة العلمية لاسـتقلال الحوزة السياسي والمالي عنها ومواقف علماء الدين من تجاوزات السلطة القاجارية على شـعبها وظلمها الكبير له. ويندرج ما مرَّ ضمن سياق التخادم بين السلطتين السياسية والدينيـة، وهـو ما أدركته بوضوحٍ تامٍ السـلطة العثمانية فدخلت على خط المنافسـة مع السـلطة القاجارية، وتكشـف لنا إحدى التقارير المتعلقة بالموضوع والمرسلة من بغداد إلى الأستانة عن ذلك:

«إنّ أهمّ مجتهدي الشـيعة يعيشـون في النجـف وكربلاء، وهم رعايـا عثمانيون من أصـولٍ عربيـة، وبالرغم من أنّ هؤلاء المجتهدين لا يحبون شـاه إيران، إلّا أنّهم يكنون لـه الاحترام بسـبب المسـاعدات التي يقدمها للعلـماء والعتبات. ولو أنّ الشـاه حصل على تأييد ودعم هؤلاء المجتهدين سـيعمل على اسـتمرار تبعية أهالي إيران للشاه، وإذا حدث العكس فمن المحتمل أن يقوم الأهالي بثورة ضد الشاه في كلّ وقتٍ وحينٍ... إنّ مسـألة تمكّن الدولة العثمانية من بسط نفوذها على العلماء وكلّ الشيعة، كان أمراً يمكن

للدولـة العثمانية أن تنجح فيـه أكثر من إيران، ولتحقيق هـذا النفوذ يجب زيارة هؤلاء العلماء، وإرسال الهدايا للأضرحة المقدسة، وعدم إهمال العناية بتلك الأضرحة» (قايا 2008م، 345–346).

فعملـت الدولة العثمانية على ذلك، فنشـأ هامشٌ من الهبات على الشـعراء المادحين لتلك المنجزات العثمانية في إعمار العتبات وكذلك إرسـال الهدايا لها (العمري 1964م، ينظـر: 112، 186، 187، 244، 245، 326، 428) (الأخـرس 1986م، ينظـر: 47، 87، 608) (ج. الحـلي 1331هــ، ينظـر: 105، 275، 412) (الأسـدي 1999م، ينظـر: 29) (الكاظمـي 1964م، ينظـر: 351). وقـد كان للدولة العثمانية وخاصة سياسـة الوحدة الإسـلامية للسـلطان عبد الحميد الثاني نفوذٌ بدرجةٍ هامةٍ على علماء الدين في مدارس النجف وكربلاء (قايا 2008م، ينظر: 364).

أمَّا السـياق السـياسي الثاني في إعمار العتبات المقدسة فهو محاولة التخلّص من نقمة رجال الدين على الشـاه القاجاري وعلى سياساته الجائرة، وخاصة شيخ العراقيين عبد الحسـين الطهـراني المتوفى سـنة (1286هــ/ 1869م)، الذي كان من كبـار علماء طهران وممـن تخـرَّج من مدرسـة النجـف العلميـة، ولم يكـن من وعّـاظ السـلاطين المؤيدين للسياسة القاجارية، ولم يكن يبدي أيّ خشيةٍ من السلطان أو غيره من أفراد حاشيته في مواجهة السياسـات الخاطئة للبلاط. وتدلّ السياقات التاريخية أنّ شجاعته في مواجهة السلطة دفعت بالشاه إلى التعامل معه بدهاءٍ سياسيٍ فعمل على نفيه باحترام إلى العتبات المقدسـة. حيث عمد ناصر الدين شاه إلى إبقاء شيخ العراقيين، الذي قد ذهب للعراق لأغراضٍ علميةٍ ودينيةٍ، في كربلاء؛ للأشراف على بعض أعمال عمارة العتبات والقباب والمنارات لمراقد الأئمة المعصومين عليهم السلام التي تعرَّضت للتخريب إثر هجمات الوهابيـين والقبائـل النجدية على كربلاء في بداية القرن التاسـع عشر، فضمِنَ للشـيخ بذلك نفياً محترماً إلى العراق. وبهذا الحيلة أيضاً يكون السـلطان قد تخلص من الشـيخ وفي الوقت نفسه حسّن من صورته في ذهن عامة الناس وعلماء الدين؛ إذ خرج عليهم

بمظهر المهتم بالآثار الدينية والإسلامية (رضائي 2019م، ينظر: 237–238) (الجلالي 1422هـ، ينظر: 2/ 167). وكان الشعراء يستغلون مناسبات الإعمار على يد الشيخ عبد الحسين الطهراني فيقصدونه مادحين بقصائدَ طويلةٍ تتضمن خطط الشعراء المدحيّة في استدرار الهبات التي لم يكن يبخل بها عليهم (الكاظمي 1964م، ينظر: 28، 35، 180، 355) (الطالقاني 1957م، ينظر: 278) (القزويني 2014م، ينظر: 125–126) (العمري 1964م، ينظر: 408).

الخاتمة

خلُصتِ الدراسةُ إلى نتائجَ عدّةٍ تمثّل أهم الأعراف الثقافية التي حكمت هذا العصر وهي:

1. اتسمّ القرن التاسع عشر بسمةِ المديح، حيث غلب المدح فيه على جميع الأغراض الأخرى، ويعود سبب ذلك إلى توسلِ الشعراء بالغرضية رغبةً في الهبات التي كانت بيد السلطة. فأصبحوا يصطادون المناسبات والأعياد والمواقف، وأصبحوا لا يفكرون في الأشياء إلا ليكتبوا عنها؛لأنّ وراءَ ذلك مقابلاً لا بأس به في أسوء الأحوال.

2. تتيحُ مواقعُ العلماء الدينية والاجتماعية ورمزيتها في قلوب الناس عواملَ جذبٍ لهم، وتُمكِّن لهم الإفادة من منافعَ وهباتِ السلطة السياسية التي تحاول كسب ودهم وولائهم لها؛ في سبيل إضفاء الشرعية الدينية على السلطة، وتمثّل ذلك في سياق التخادم الديني السياسي، فكان للهبات والهدايا سلطتها الرمزية على العلماء جعلتهم لا يعترضون على السلطة بل جعلت بعضهم يسيرون على سياقها ويكونون داعمين لها.

3. إنَّ تمثُّل العرف الغرضيّ الممتدّ لخطاب المديح أدى إلى تحوّل أغلب قصائد المديح في القرن التاسع عشر إلى وسيلةٍ ثقافيةٍ ترمي إلى تزيين الممدوح وذكر مآثره من أجل

الحـرص على إرضاء من صُنعتِ الثقافة له، وبالتـالي الفوز بالهبات عن طريق ثقافة السـؤال والاسـتيهاب. ولا يهمّ الشاعر في سياقِ العرف الشـعري والثقافي أنَّ هذه الصـورة التي اختلقها حقيقيةً، أم مجردَ حيـلٍ عرفيةٍ غرضيةٍ تُمارس دوراً في التعمية الثقافية لإرضاء الممدوح.

4. أنَّ ظاهرة كثرة مانحي الهبات من أصحاب السـلطة السياسية وأصحاب النفوذ المرتبطين بها، كان لها التأثيرُ الأكبرُ في تنميط القصيدة وجعلها سلعةً لها مقابلٌ ماديٌّ، ففقدت الهبة بسـببها قيمتها الأخلاقية والاجتماعية. فالهباتُ تعمل على جعل أديب ينتج أدباً له قيمةٌ تبادليةٌ، حسـب مواصفات السـوق الأدبية للسلطة، وإلَّا فإنَّ أدبه سيتعرض للكساد وحياته للملق والفقر.

5. نلاحظ في القرن التاسـع عشر بوضوح نشـوء سياقٍ ثقافي جديد للسلطة تمثّل في إعمار العتبات المقدسـة والمسـاجد الكبرى في المدن، الذي نشأ في ظلّه زخمٌ كبيرٌ من الهبات والهدايا للأدباء والعلماء، بسبب أنّ هذا النوع من أعمال السلطة كان مناسبةً كبـيرةً لرواج قصائد المديح وتَلقّي أثمانها هباتاً وجوائز من السـلطة؛ طمعاً في تخليد إنجازها وإسباغ الأهمية البالغة عليه، وعدّه تفضّلاً ومنّةً من السلطان أو الوالي على رعيته، مع التغاضي عن المطالبة بأبسط حقوق الناس المسلوبة منهم.

المراجع

إبراهيم الوائلي. الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر. ط2. بغداد: مطبعة المعارف، 1978.

أبو الثناء الآلوسي. غرائب الاغتراب ونزهة الألباب. بغداد: مطبعة الشابندر، 1327هـ.

أبو الثناء الآلوسي. الصادح بشهي النغم على أفنان ترجمة شيخ الإسلام وولي النعم. (د.ت).

أحمد عبد الحي. الشاعر والسلطة. ط1. القاهرة: أبتراك للنشر والتوزيع، 2004م.

آن كارسن. اقتصاد ما لا يضيع: قراءة سيمونيدس الكيوسي مع باول تسيلان. ترجمة علي مزهر، مراجعة: حسن ناظم. ط1. بيروت: سلسلة دراسات فكرية – جامعة الكوفة، دار الرافدين، 2018م.

جابر الكاظمي. ديوان الشيخ جابر الكاظمي 1222–1312هـ، تحقيق محمد حسين آل ياسين. ط1. بغداد: مطبعة المعارف، 1964م.

جعفر الحلي. سحر بابل وسجه البلابل: ديوان السيد جعفر الحلي، تحقيق الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. (د.ط). صيدا: مطبعة العرفان، 1331هـ.

جعفر النقدي. تاريخ الإمامين الكاظمين عليهما السلام وروضتهما الشريفة. بغداد: المطبعة العربية، 1369هـ.

جميل صدقي الزهاوي. ديوان الكلّم المنظوم. دار مصر للطباعة، 1955م.

جميل موسى النجار. العلاقات العثمانية الإيرانية تطوراتها وتأثير العراق العثماني فيها وانعكاسها عليه (1823–1875م). ط1. بغداد: دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، 2016م.

جميل موسى النجار. الإدارة العثمانية في بغداد من عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني 1869–1917م. ط1. القاهرة: مكتبة نابولي، 1991م.

جواد بدقت الأسدي. ديوان الحاج جواد بدقت الأسدي المتوفي سنة (1281هـ)، تحقيق: سلمان هادي آل طعمة. ط1. بيروت: مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، 1999م.

حامد رضائي. شيخ العراقيين الشيخ عبد الحسين الطهراني الحائري. ترجمة حسن علي حسن مطر. ط1. كربلاء: اختصره وضبطه ووضع فهارسه مركز تراث كربلاء قسم المعارف الإسلامية والإنسانية، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، 2019م.

حسن مصبح الحلي. ديوان الشيخ حسن مصبح الحلي، تحقيق مضر سليمان الحلي. ط1. كربلاء:

مراجعة وضبط مركز تراث الحلة، قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية في العتبة العباسية المقدسة، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، 2019م.

حيدر الحلي. ديوان السيد حيدر الحلي، تحقيق: مضر سليمان الحلي. ط1. بيروت: منشورات شركة الأعلمي للمطبوعات، 2011م.

ديلك قايا. كربلاء في الإرشيف العثماني دراسة وثائقية (1840–1876م). إشراف وتقديم: زكريا قورشون. ترجمة: حازم سعيد منتصر ومصطفى زهران. ط1. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008م.

راضي القزويني. ديوان السيد راضي القزويني، دراسة وتحقيق: حسن عبد الهادي الدجيلي وفهد نعيمة مخيلف. ط1. بغداد: دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، 2014م.

رفائيل بطي. الأدب العصري في العراق العربي–قسم المنظوم. مصر: المطبعة السلفية، 1923م.

سجاد شعبان حسن. الشعر العربي في العراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دراسة في ضوء النقد الثقافي (أطروحة دكتوراه). كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة، إشراف حسين عبود حميد الهلالي، 2017م.

صالح التميمي. ديوان التميمي، باعتناء وتحقيق: محمد رضا السيد سليمان وعلي الخاقاني. النجف: مطبعة الزهراء، (د.ت).

عباس العزاوي. تاريخ العراق بين احتلالين. بيروت: الدار العربية للموسوعات، (د.ت).

عبد الباقي العمري. الترياق الفاروقي. ط2. النجف الأشرف: دار النعمان للطباعة والنشر، 1964م.

عبد الغفار الأخرس. ديوان الأخرس، تحقيق الخطاط وليد الأعظمي. ط1. بيروت: مكتبة النهضة العربية، 1986م.

عبدالله الغذامي. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية. ط4. المغرب: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2008م.

—. شعراء الغري أو النجفيَّات. (د.ط). النجف: المطبعة الحيدرية، 1954م.

—. شعراء بغداد من تأسيسها إلى اليوم. بغداد: مطبعة أسعد، 1962م.

علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. ط2. بيروت: دار الراشد، 2005م.

ماري باتريك. سلاطين بني عثمان الخمسة. ترجمة: مركز المؤسسة. ط1. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2011م.

محسن أبو الحب. ديوان الشيخ محسن أبو الحب الكبير، تحقيق جليل كريم أبو الحب. ط1. كربلاء: منشورات مركز كربلاء للدراسات، دار الوارث للطباعة والنشر، 2015م.

محسن الأمين العاملي. أعيان الشيعة. حققه وأخرجه حسن الأمين. (د.ط). بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1983م.

محمد حسين الحسيني الجلالي. فهرس التراث. ط3. قم: دليل ما للنشر والتوزيع، 1422هـ.

محمد مهدي البصير. نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر. بغداد: مطبعة المعارف، 1943م.

مصطفى الواعظ. الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر. الموصل: مطبعة الاتحاد، 1948م.

موسى الطالقاني. ديوان السيد موسى الطلقاني، تحقيق محمد حسن الطلقاني. النجف: مطبعة الغري الحديثة، 1957م.

هاشم الأعظمي. تاريخ جامع الإمام الأعظم ومساجد الأعظمية. بغداد: مطبعة العاني، 1964م.

يعقوب الحاج جعفر. ديوان الشيخ يعقوب الحاج جعفر النجفي الحلي (1207–1329هـ) عُني بجمعه والتعليق عليه ولده محمد علي اليعقوبي. ط1. النجف: مطبعة النعمان، 1962م.

يوسف عز الدين. الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر. (د.ط). القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965.

البحوث والمجلات:

حسين عبد الأمير مرعشي. «الفكر السياسي الإيراني في عصر القاجار وانعكاساته في الشعر العربي (قصيدة نصيري أميني في مدح ناصر الدين شاه أنموذجاً.» مجلة العميد. كربلاء المقدسة. السنة الثامنة الثامن العدد التاسع والعشرون.

عبد الفتاح بن سعيد الشواف البغدادي. «حديقة الورود في مدائح ابي الثناء شهاب الدين السيد محمود.» (د.ت)، الإصدار العدد: 8ر 810/ ح.ب المجموعة الأدبية.

علي الخاقاني. «من شعراء القرن التاسع عشر الشيخ جابر الكاظمي.» الدليل، 1946م، الإصدار العدد الأول/ السنة الأولى.